بوتومور

تمهيد في علم الاجتماع

ترجمة وتعليق وتقديم :

الدكتور محمد الجوهرى
الدكتورة علياء شكرى
الدكتور محمد على محمد
الدكتور السيد محمد الحسينى

[illegible]
بقلم الأستاذ الدكتور
[illegible] الساعاتى

دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب الرابع

بوتومور

تمهيد في علم الاجتماع

ترجمة وتعليق وتقديم

دكتور محمد الجوهري
أستاذ علم الاجتماع المساعد
جامعة القاهرة

دكتورة علياء شكري
أستاذ علم الاجتماع المساعد بكلية البنات
جامعة عين شمس

دكتور محمد على محمد
أستاذ علم الاجتماع المساعد
جامعة الإسكندرية

دكتور السيد محمد الحسيني
أستاذ علم الاجتماع المساعد
جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة
١٩٧٨

دار المعارف

تصميم الغلاف : نادية النحاس

الطبعة الأولى : القاهرة ١٩٧٢
الطبعة الثانية : » ١٩٧٣
الطبعة الثالثة : » ١٩٧٨

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

ترجمة عن الإنجليزية لكتاب :

T.B. BOTTOMORE

Sociology : A Guide to Problems and Literature

George Allen and Unwin Ltd. 8th Impression,

London 1969 (first Published in 1962).

فهرس الكتاب

الصفحة

مقدمة الترجمة العربية

علم الاجتماع دراسة إنسانية

بقلم : دكتور محمد الجوهرى

١

كثيرون منا يدركون ويدهشون من ظاهرتين متكررتين ، تبدو متناقضتين للوهلة الأولى : الظاهرة الأولى ذلك التزايد المستمر فى قدرات الإنسان وإمكانياته ، من خلال قدرته على تفسير القوى الطبيعية وإخضاعها لمصالحه . والظاهرة الثانية ذلك العجز المتزايد من جانب الإنسان عن استغلال هذه القدرات والإمكانيات وتسخيرها لأغراض إيجابية تفيد حياته وتنفعه فى يومه وغده ، بدلا من أن يتحول هو إلى أداة لها ، تبتلعه وتتجاوزه ، وتتحول بالتالى إلى تهديد مباشر لتوازنه الروحى ، وأمنه ، بل ووجوده كله . إن الإنسان المعاصر يكسب مع كل يوم مزيداً من المعلومات عن بيئته ، ثم إن هذه البيئة لا تكف عن النمو والاتساع ، بحيث إنها أخذت تتجاوز حدود عالمه الأرضى ، وتنفذ إلى عوالم الفضاء المحيطة بكوكبه الأرض . فإنسان اليوم أسرع حركة على الصعيد الجغرافى ، والاجتماعى ، والفكرى من إنسان العصور الغابرة ، وهو فى حركته أشمل من أى سلف من أسلافه ، حركة فاقت فى أبعادها كل عرف قديم . وهو يزداد وعياً — من ناحية أخرى — بأنه لم يعد يعرف إلى أين ستقوده مسيرته . كما أنه يزداد وعياً بأنه لم يعد يعرف كيف يتسنى له أن يتحكم فى كل ما حوله من تغيرات مادية ، وفكرية ، واجتماعية (هو نفسه الذى خلقها ويشكلها أحياناً) ، بحيث يحمى نفسه من الوقوع فريسة لحالة من الخراب المادى أو الدمار الروحى أو كليهما معاً .

فإذا ما تساءلنا بعد ذلك : من هو ذلك الإنسان « العصرى » الذى نعنيه ، هل هو إنسان أوربا وأمريكا ، هل هو إنسان البلاد الصناعية جميعاً ، اشتراكية كانت أم رأسمالية ، أم هو إنسان القرن العشرين أينما عاش ، فى نصف العالم المتقدم وفى نصفه النامى على حد سواء ؟ إننا نرد على ذلك برد واضح بسيط ، نعتقد أنه الصواب ، وهو أن الإنسان

العصرى « الذى نعنيه هو الإنسان المتغير » ، ذلك الكائن « المتحرك » الذى لا تعرف حركته الجغرافية أو الاجتماعية أو الفكرية هوادة . وهو موجود فى نصف الكرة المتقدم (وهذا أمر بديهى للجميع) ، كما أنه موجود فى نصف الكرة الآخذ بالنمو ، وليس أدل على ذلك من صيحات التغيير ، وجهود التغيير الذى تتناهى إلى أسماعنا من كافة ما نسميه البلاد النامية فى كل أجزاء الأرض . الإنسان « المعاصر » الذى نعنيه هو إذن إنسان تلك الحقبة والحقب القليلة القادمة من القرن العشرين ، الإنسان المتغير الدائب الحركة ، الذى لا تعرف حركته هوادة على الإطلاق ، مهما اختلف موقعه الجغرافى ، أو الاجتماعي ، أو مستواه الفكرى .

فكلما ازداد الإنسان قوة خارجية وأصبح أكثر قدرة على التأثير على العالم المحيط به ، كلما تحول هو نفسه إلى مشكلة . وكلما ازداد قدرة على حل المشكلات التى واجهت أسلافه أبناء العصور الغابرة — وأعنى المشكلات المادية — من خلال تزايد سيطرته على الطبيعة وتسخيرها لصالحه ، كلما ازداد إدراكاً لعجزه على حل مشكلاته الاجتماعية : أعنى المشكلات الناجمة عن سلوك الإنسان إزاء أبناء جنسه الآخرين . وكلما ازداد وضعه الاجتماعى تفاقماً كلما ألح عليه التساؤل عن « الإنسان ككائن اجتماعى » ، إمكانياته ، وتحدياته ، وما يتعرض له من مخاطر .

وأمر آخر . الملاحظ من ناحية أخرى أن هذه التحولات العنيفة والتغيرات الحادة التى تضطرم بها حياة الإنسان المعاصر ، تجعل من الصعب الوقوف بدقة على الإمكانيات الحقيقية للإنسان كإنسان ، فى ضوء خبرات الأجيال السابقة . فإنسان اليوم ليس هو إنسان الأمس ، أو أول أمس ، ومن ثم فمشاكله غير مشاكل سلفه ثم إن إمكانياته هى بالقطع أوسع وأعقد من إمكانيات سلفه . وكلما ازدادت معلوماتنا عن الإنسان ، وكلما اتسع مجال خبرتنا بأبناء عصور ، وأجناس ، وثقافات مغايرة لعصرنا ، وجنسنا ، وثقافتنا ؛ كلما تحول الإنسان فى نظرنا إلى لغز يصعب الوقوف على حقيقته بسهولة . وكلما تحول كذلك إلى كائن مليء بالتناقضات ، يصعب عليك أن تتنبأ بسلوكه إلى مدى بعيد أو فى ظل ظروف معقدة . وكلما ازداد احتكاكنا بأفراد من ثقافات أوروبا المعاصرة على سبيل المثال ، أو بأبناء ثقافات مجتمعات نامية مغايرة ، كلما ازداد اقتناعنا بإمكانيات الإنسان المعاصر على النمو والتحول والتكيف لظروف متباينة أشد التباين . فهؤلاء بما نجده لديهم من فكر ، ومشاعر ، واتجاهات مغايرة يضربون لنا أمثلة حية مؤثرة على إمكانيات

الإنسان التى لا تحدها حدود، والتى يصعب التنبؤ بها بالتحديد فى ضوء معلوماتنا السوسيولوجية الراهنة . ثم إن هذا المدى الواسع من التباين بيننا وبين غيرنا من الناس يحملنا على التشكك فيما إذا كانت تجمع بيننا جميعاً — كبشر — ثمة خصائص وسمات عامة أصلا . هل كلنا — بما يملؤنا من اختلاف وتناقضات — أبناء جنس واحد ، وهل نحن قادرون أصلا على تحديد سمات عامة مشتركة تجمع بين هذا المزيج العجيب ، ذلك أحد التحديات البارزة التى يجب أن يتصدى لها علم الاجتماع على نحو ما سنفصل القول فيما بعد .

ويجب أن نؤكد هنا على شيء هام وهو ضرورة توقى أنفسنا الوقوع فى أخطاء ما يعرف بالتمركز حول السلالة Ethnocentrism وأعنى أن نجعل من معايير وعادات وخبرات مجتمعنا وثقافتنا معياراً نقيس به « الطبيعة الإنسانية » ، ونحدد لها به ما تقدر عليه ، أو ما تتوقع أن تصل إليه[1] .

وبالرغم من هذا — وربما من أجل هذا — يجب أن نلح فى طرح التساؤل التالى على أنفسنا : ما هى الأشياء التى يقدر الإنسان على تحقيقها (الإيجابية والسلبية على السواء) ، وما هو مدى قدرته على التكيف ، وما هو مدى خضوعه لميراثه وتركيبه الحيوى ، وما يمليه عليه هذا الميراث وهذا التركيب من دوافع وما يحدده له من حدود ؟

ومن الممكن أن نجيب على هذا التساؤل بطريقتين مختلفتين : الأولى على أساس عقيدة دينية أو دنيوية تحدد لنا المسائل المطلقة والنهائية فى حياة البشر . عقيدة تحدد لنا أصل الإنسان ، ومصيره ، وعلة وجوده. . . إلخ . والطريقة الثانية أن نجيب على أساس المعارف والحقائق العلمية المتاحة لنا . . وفى الحالة الثانية يتحتم علينا الإقلاع تماماً منذ البداية عن محاولة الوصول إلى أى إجابة عن مثل هذه التساؤلات « النهائية » و « المطلقة » ، ونقصر أنفسنا على كل ما هو متاح لنا إمبيريقياً ، أى ما يمكن أن نتوصل إلى إدراكه من الواقع ، ونستطيع تحليله تحليلا مفهوماً ومقبولا . ومن الواضح أننا كمشتغلين بالعلم لا نفكر سوى فى هذا الطريق الثانى ، طريق العلم والتأسيس على العلم . كما أننا لن نستطيع كمتخصصين اجتماعيين أن نقدم عن هذا الطريق سوى إسهاماً محدوداً ، وهذا قيد نعرفه ونسلم به منذ

---

(١) انظر مادة التمركز حول السلالة فى أيكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين. محمد الجوهرى وحسن الشامى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٣٣ — ١٣٦ .

البداية . ذلك أن المناهج العلمية تقوم على حقيقة أن التخصص ضرورة لا مناص منها ، والتخصص يعنى تحديد المشكلة المطروحة للبحث ، وتحديد أسلوب معالجتها ، وتحديد النتائج التى نتتهى إليها . ولذلك لا يمكن أن نتصور أن هناك علماً واحداً لدراسة الإنسان، فهناك أكثر من تخصص علمى يشترك فى هذه المهمة العظيمة . كل ما فى الأمر أن كل واحد منها يتطرق إليه من زاوية مختلفة ، طارحاً تساؤلات مختلفة ، وآخذا بقية فروع دراسة الإنسان فى الاعتبار (٢) .

لذلك فعلم الاجتماع لا يتطرق إلى دراسة الإنسان إلا باعتباره «كائناً اجتماعياً» ، أو دراسة ما يمكن أن نسميه « الطبيعة الاجتماعية » للإنسان . فالإنسان كما سنرى من فصول الكتاب التالى بمزيد من الدقة مهيأ بطبيعته للحياة فى المجتمع ، ولا يتصور نظرياً وعملياً أنه قادر على الحياة بغير مجتمع فهو باختصار يستمد إنسانيته من المجتمع ، أو قل إن المجتمع الإنسانى هو الذى يجعل من الكائن الحى (الإنسان) إنساناً بالمعنى الحق للكلمة . ولا يعنى هذا أننا يمكن أن نتجاهل فى الإنسان جوانبه البيولوجية والنفسية . وإذا كنا فى دراستنا السوسيولوجية نفصلها فصلا مصطنعاً عن الجوانب الاجتماعية ، فإننا نلتزم رغماً عنا بمبدأ أساسى من مبادئ التخصص العلمى ، التى لا يمكن أن تكون الدراسة علمية بدونها . ومع ذلك فسيكون من الصعب علينا أن نميز داخل هذا الإطار المحدود بين خبرتنا الاجتماعية والمعاصرة عن الإنسان من ناحية ، وبين السمات الإنسانية الأساسية التى تمثل نواة الإنسان ككائن اجتماعى على طول العصور من ناحية أخرى .

ومن الطبيعى أن مثل هذه الصعوبات يجب ألا تحملنا أبداً على الكف عن محاولة فهم الإنسان ككائن اجتماعى ، بحجة أنه ليس هناك « إنسان » واحد وثابت ، وإنما هناك كائن متغير ومتحرك باستمرار ، وأنه يعيش وسط عالم متغير لا سيطرة له عليه ؛

---

(٢) ويطرح بعض السوسيولوجيين ضرورة وجود أنثروبولوجيا علمية بالمفهوم الأوروبى للأنثروبولوجيا تتركز على الإنسان من كافة جوانبه (البيولوجية والثقافية والاجتماعية) وتؤلف بين نتائج العلوم المختلفة التى تدرس الإنسان لتقدم عنه صورة واحدة شاملة ومكتملة بقدر اكتمال هذه العلوم وتقدمها . انظر هذا الموضوع :

Leopold Von Wiese, Homo Sum, Jena, 1940.

وكذلك كتابه : Philosophie und Soziologie, Berlin, 1960.

انظر أيضاً : Richard Behrendt, Der Mensch im Licht der Soziologie, Kohlhammer, 2 Auflage, Stuttgart, 1963, Chap. I.

وكذلك مادة أنثروبولوجيا فى قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور الذى سبقت الإشارة إليه .

فتخيلنا هذا سيؤدى بنا إلى تعميق ذلك التناقض المدمر الذى أشرنا إليه فى البداية بين رغبة الإنسان وقدرته على التعرف على بيئته الخارجية والسيطرة عليها من ناحية ، ومعرفته بنفسه وقدرته على السيطرة على نفسه من ناحية أخرى . فنحن اليوم أشد ما نكون احتياجاً إلى فهم أنفسنا ، وهى حاجة نحسها أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى . نحن نريد أن نفهم أنفسنا كبشر تقوم حياتهم على الحياة المشتركة المنظمة ، باعتبارها السبيل الوحيد أمام الإنسانية إذا ما أرادت أن تعيش وتتقدم . والوسيلة لذلك أن تلحق العلوم « الفاشلة » (كما سمى التون مايو علوم الإنسان ، أعنى علم النفس ، والاجتماع ، والسياسة) بالعلوم « الناجحة » (أعنى تلك العلوم التى تدرس الطبيعة والتكنولوجيا) .

فالمشكلة هى التعرف على الجوانب الثابتة الدائمة فى الحياة الاجتماعية الإنسانية من ناحية ، والجوانب المتغيرة المتحركة فى تلك الحياة من ناحية أخرى ، أو العوامل الثابتة والمتغيرة فى السلوك الاجتماعى . فنحن ننطلق دائماً من الاعتقاد بوجود بعض العناصر الثابتة ، ومهمتنا أن نعرفها ونلقى عليها الأضواء ، لكى يتسنى لنا من خلال ذلك تعيين الحدود التى ظل الإنسان يتحرك فى إطارها فى مختلف مراحل حياته الاجتماعية حتى يومنا هذا .

ومن الواضح أن هذه القضايا العامة تفرض على ميدان دراستنا بعض القيود وتلزمه ببعض الحدود ، كما تشكل أسلوبنا فى طرح مشكلات الدراسة وموضوعات البحث .

٢

فهل يستطيع علم الاجتماع أن يقدم لنا صورة كاملة وشاملة للإنسان ؟ من المؤكد أنه لا يمكن إلا أن يقدم وجهة نظر معينة — من بين وجهات نظر عديدة ممكنة — إلى الإنسان وإلى العالم . وهى وجهة نظر محدودة ومحددة بالضرورة ، بل وجزئية أيضاً بالضرورة . فعلم الاجتماع ليس علماً موسوعياً ، وإنما هو اليوم علم متخصص وقد كف علماء الاجتماع منذ أمد بعيد — كما يوضح بوتومور فى الفصل الأول من هذا الكتاب — عن رفع شعار الموسوعية فهو لايتخذ الإنسان « بأكمله » موضوعاً له ، ولكنه يركز فى هذا الإنسان على الجانب الاجتماعى ، أو على سلوكه داخل المجتمع . وعلم الاجتماع علم وصفى وتحليلى فى نفس الوقت ، يحاول أن يتوصل إلى تحديد أشكال ، وأصول ، وآثار ، واتجاهات السلوك

الاجتماعى ، وكذلك المدلولات الذاتية لكل هذه الموضوعات . كما يحاول أن يحدد الوسائل — لا الغايات — التى يمكن أن يعيد بها الإنسان تشكيل حياته وبيئته الإجتماعية .

ويتكون « الفعل الاجتماعى» من العمليات والعلاقات التى تتم بين الأفراد (أى الأفعال المتبادلة) ، وكذلك من التكوينات الاجتماعية التى تنجم عن هذه العلاقات والعمليات . وتتفاوت هذه الجماعات أو التكوينات الاجتماعية من حيث كثافتها ووظائفها من « الجماعات الخاصة المحدودة » (كالأسرة ، والعشيرة) إلى الجماعات الأكبر (كالمصنع ، أو الدولة ، أو الأمة) والجماهير ذات الطبيعة العارضة (كما يحدث عند التظاهر مثلا) أو الكامنة (كما نجد مثلا فى صورة الطبقات الاجتماعية ، أو جمهور مؤلف معين . . . إلخ) . فعلم الاجتماع يتخذ من العلاقات بين الناس موضوعاً له .

ويتخصص **علم الاجتماع العام** فى دراسة ظواهر الحياة الاجتماعية الأساسية التى تبدو فى معظم أو فى كافة مجالات الحياة كعلاقات الخضوع والسيطرة والتعاون والصراع ، والطبقات الاجتماعية ، والعلاقة بين الرجل والمرأة ، وبين الأجيال ، وأشكال العمران المختلفة ، والضبط الاجتماعى . . إلخ الموضوعات التى نقرأ عنها بمزيد من التفصيل على صفحات هذا الكتاب . ثم هناك إلى جانب علم الاجتماع العام **علوم الاجتماع الخاصة** التى تختص بدراسة العمليات ، والعلاقات ، والتكوينات الاجتماعية الخاصة ، أى تلك التى توجد فى مجالات اجتماعية نوعية ، والتى تساهم فى تكوين الثقافة الإنسانية فى المجالات المختلفة . كما تختص هذه العلوم الاجتماعية الخاصة — من ناحية أخرى — بدراسة تأثير تلك المجالات النوعية على ما يطرأ على السلوك الاجتماعى من تغيرات . وبهذا المعنى توجد علوم للاجتماع الاقتصادى ، والصناعى ، والسياسى ، والعائلى ، والريفى والحضرى ، والقانونى ، والتربوى ، والدينى ، والفنى ، والمعرفى . . . إلخ كما يتضح من فصول الكتاب المتتابعة . ومن الطبيعى أن تكون هناك علاقة اعتماد متبادل بين علم الاجتماع العام وعلوم الاجتماع الخاصة : فعلم الاجتماع العام يعتمد على العلوم الخاصة لأنه يستمد منها المادة المعرفية الواقعية التى يعمل بها وحتى لا يحلق فى الخيال على غير أساس من الواقع الخاص الذى تدرسه تلك العلوم كل فى تخصصه . كما تعتمد العلوم الخاصة بدورها على علم الاجتماع العام لتستمد منه عنصر الوحدة والتماسك ، الذى يمكنها من أن تطرح أسئلة أكثر عمقاً وأبعد دلالة .

كما يميز علماء الاجتماع علاوة على هذا بين المناهج أو « الاتجاهات » أو « النزعات » الأمبيريقية والنظرية . ويميل الاتجاه الأول (الذى يعرف أحياناً بالسوسيوجرافيا Sociography أو علم الاجتماع الوصفى) إلى الوصف المفصل قدر الإمكان ، والملاحظة الدقيقة المنضبطة ، (مستعيناً فى كل ذلك بالطرق والأساليب الكمية قدر الإمكان) ، للمواقف الواقعية الملموسة . أما الاتجاه الثانى فيستهدف فى المقام الأول صياغة واستخلاص المعارف العامة الشاملة (التى يحرص قدر الإمكان على استخلاصها من نتائج الدراسات الأمبيريقية) ، وإلى صياغة الفروض . ولا مناص للبحث السوسيولوجى من الاستعانة بكلا الاتجاهين والإستفادة بهما ، والاعتماد عليهما[٣] .

وقد تبينا بوضوح أن علم الاجتماع ليس هو العلم الاجتماعى الوحيد ، كما أنه ليس « التركيب » أو الوعاء الذى يجمع كل معارف العلوم الاجتماعية الأخرى وينسق بينها ، وإنما هو يقوم على تحقيق وظيفة محددة بين العلوم الاجتماعية الأخرى . وبينما يركز هو على موضوع العلاقات بين الناس فى المجتمع ، تهتم العلوم الاجتماعية الأخرى ببيان علاقة هؤلاء بالسلع وتوفيرها (كعلم الاقتصاد ، والإدارة) ، وعلاقة الناس ببيئتهم الطبيعية (كالبيولوجيا الاجتماعية ، والجغرافيا الثقافية) ، والعلاقة بين العمليات النفسية داخل الإنسان الفرد وبيئته الاجتماعية (كعلم النفس الاجتماعى) ، والعلاقة بين البيئة الاجتماعية وصحة الإنسان الفرد الجسمية والنفسية (كالطب الاجتماعى) . وتتبادل كل هذه العلوم الاعتماد على بعضها ، والإستفادة من بعضها البعض . وهو ما يوضحه بوتومور بما فيه الكفاية فى عرضه القيم للعلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الإجتماعية فى الفصل الرابع من كتابه هذا .

ويسعى علم الاجتماع إلى إثارة الاهتمام بالوقائع أو التغيرات أو الاتجاهات الإجتماعية المختلفة التى تؤثر فى السلوك الإنسانى ، وإلقاء مزيد من الضوء عليها جميعاً . وتبدو هذه المهمة على جانب كبير من الخطورة فى عصرنا هذا بالذات ، حيث تتعرض كافة مجالات الفكر والسلوك الإنسانى لتغير سريع وحاد لا ينقطع . ولذلك يرتكز علم الاجتماع على الإيمان بأن أسلوب سلوك الناس إزاء بعضهم البعض ومعيشتهم مع بعضهم البعض (إن

---

(٣) قارن حول هذا الموضوع : محمد الجوهرى : « دراسة المجتمع بين الأمبيريقية والتنظير » ، مقال بمجلة الفكر المعاصر ، عدد يناير ١٩٧٠ .

ائتلافاً أو اختلافاً) ذات تأثير بعيد على كل عمل إنسانى وتؤثر فى نتيجته تأثيراً بعيد المدى . وعليه فإن كل علم وكل عمل يتصل بالبشر يمكن أن يفيد من دراسات علم الاجتماع ونتائج البحوث السوسيولوجية على اختلافها .

وعلم الاجتماع بمسائله ومناهجه ابن العصر الحديث ، فلم يحصل على استقلاله كعلم إلا منذ عهد غير بعيد ، وقد أدى إلى ظهوره وإلى استقلاله بهذه السرعة عن بقية العلوم الإنسانية ازدياد تعقد البناء الاجتماعى القائم وعنف التغيرات التى تطرأ عليه بحيث أنه بات من المستحيل التحكم فى مسار المجتمع الحديث استناداً إلى « التقدير السليم » فقط أو إلى موقف المفكر أو السياسى الفرد وخبراته الخاصة ، فهى محدودة مهما اتسعت آفاقه ، وهى قاصرة مهما كانت ضخامة الجهود التى يبذلها لتعميقها واستكمال مابها من ثغرات . ويستعرض بوتومور مجموعة العوامل الرئيسية التى أدت إلى استقلال علم الاجتماع ، الذى كان يمثل فى بادىء الأمر تياراً من تيارات العلوم الإنسانية . ولكننا يمكن أن نؤكد أيضاً على العوامل التالية التى ساهمت فى استقلال هذا العلم .

١ — التغير الاجتماعى الشامل الواسع النطاق والعميق الجذور . ومن أبرز معالم هذا التغير : الثورة الصناعية ، ونمو الاتجاه الليبرالى فى الفكر والحياة الأوروبية ، وانتشار الديمقراطية الغربية ، وازدهار وتطور الاتجاهات الفكرية الاشتراكية ، ونمو التجارة الدولية ، والحروب العالمية بما ترتب عليها من أهوال وكوارث كالقتل بالجملة والهجرات الضخمة ، والتضخم ، واختفاء طبقات وشرائح اجتماعية بأكملها ، وظهور بعض نظم الحكم الديكتاتورية (كالنازية والفاشية) .

٢ — ظهور نظام اجتماعى متغير باستمرار بمعالم جديدة مختلفة اختلافاً كبيراً عن النظام الاجتماعى الذى ألفته أوروبا فى القرن التاسع عشر . ومن ذلك : تحريك « جماهير الشعب » التى كانت تمثل فئات سلبية فى الماضى ، وظهور شريحة اجتماعية وسطى مثقفة ، وطبقة بروليتارية صناعية حضرية(٤) ، وظهور جماعات منظمة تدافع عن مصالح فئات معينة لها قوتها ونفوذها (كالنقابات واتحادات أصحاب الأعمال فى

---

(٤) انظر لبوتومور أيضاً ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الكتاب السابع فى هذه السلسلة ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

البلاد الصناعية الرأسمالية) ، وازدياد قوة وسائل الاتصال الجماهيرى وتعاظم تأثيرها على تكوين رأى عام ، والتأثير فيه بسهولة وبعمق .

٣ — الرغبة المتزايدة فى إعادة تشكيل الواقع الاجتماعى والتخطيط من أجل التقدم، وهو أمر لا يتيسر تحقيقه ، بل ولا التفكير فيه ، بغير توفر معرفة دقيقة بالواقع الاجتماعى وقوانين حركة المجتمع — أى المعرفة السوسيولوجية .

فلولا المشاكل الاجتماعية الحادة ما كان هناك علم اجتماع ، كما أنه لولا المرض ما كان هناك طب . وكلما ازداد الناس وعياً بهذه المشاكل ، كلما ازداد شغفهم بعلم الاجتماع . ولعل هذا هو سر الاحتفاء الزائد بعلم الاجتماع فى بعض البلاد كالولايات المتحدة ، وألمانيا الغربية ، وإسرائيل خلال العقود القليلة الماضية ، اهتماماً يفوق كثيراً من البلاد الأوربية المتقدمة الأخرى ، وأذكر هنا سويسرا بالذات كمثال واضح على ذلك .

وقد شاع فى التراث الأوروبى — ولا زال إلى حد ما — إطلاق صفة « سوسيولوجى » على كل التفسيرات والتنبؤات الفلسفية التاريخية والفلسفية الثقافية المعقولة (وغير المعقولة أحياناً أيضاً) ، التى تحرص على اتخاذ ثوب العلم ، ولكنها غير قابلة للتصنيف فى نسق العلوم التقليدى . والمقصود هنا بالذات بعض الآراء والمواقف ذات الطبيعة ، الأيديولوجية أو السياسية التى يراد إضفاء طابع علمى مزيف عليها . فى حين أننا يجب فى حقل علم الاجتماع أن نتحرز من التعميمات الطائشة التى لا تستند إلى أساس ، امبيريقى يدعمها ويؤيدها ، وعلينا بالذات أن نتجنب الانغماس فى محاولة تقديم تفسير « لطبيعة الإنسان » أو « جوهر » الإنسان أو « حقيقة » التاريخ . . إلخ .

ونتيجة لهذا سيجد القارئ على صفحات هذا الكتاب تضييقاً لنطاق التأمل النظرى الحدسى إلى أبعد حد من أجل توسيع نطاق الفكر العلمى الامبيريقى الملموس ، وهو دعامة هامة من الدعامات التى ينهض عليها علم الاجتماع الحديث . مع التنبيه إلى المعادلة الصعبة التى ينبغى حلها وهى الموازنة بين استناد التفكير إلى أساس واقعى وتميزه فى نفس الوقت بشمول النظرة وعمق التحليل . وهى معادلة نعتقد أن بوتومور قد وفق فى حلها إلى أبعد حد ، وهى من المزايا التى حققت لكتابه هذا السمعة الطيبة التى يحظى منذ ظهوره .

٣

قررنا من قبل ونؤكد مرة أخرى أن علم الاجتماع لا يمكن أن يكون بديلا للدين ، أو الأخلاق ، بمعنى أنه لا يمكن أن يقدم للناس أهدافاً معيارية ويحدد لهم مهام يتعين عليهم أن يؤدوها . وهو يقتصر فى هذا الصدد على وصف الظواهر الاجتماعية وتشخيص الظروف الاجتماعية التى تؤثر على ظهور وتغير الأفكار العامة والمثل العليا أو ما نسميه اليوم الأيديولوجيات . ويتحفظ علماء الاجتماع فى سعيهم هذا إذ يسلمون بادىء ذى بدء بأن هذه الظروف الاجتماعية ليست سوى عنصر من بين عناصر عدة تؤثر على هذه الأفكار . كما أنهم فى محاولاتهم يسلمون بأن تفسير ظروف وتغير بعض الأفكار من واقع العوامل الاجتماعية لا يدل على صدقها أو كذبها ، على خطئها أو صوابها .

ويستطيع علم الاجتماع علاوة على هذا أن يبصر الناس بالنتائج الممكنة أو المحتملة التى تترتب على تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية أو الوصول إلى بعض الغايات . كما أنه يستطيع أن يبصرهم بما إذا كانوا قادرين أم لا على تحقيق هذه الأهداف وكذلك يمكن أن يعين لهم الشروط التى يجب توافرها لتحقيق أهداف بالذات . فهو يستطيع بهذا — وبمعنى محدد — أن يساعد البشر على تحديد أهداف لنضالهم ولحياتهم فى المجتمع . وهو كأى علم يقتصر فى استخدامه العملى على تحديد الوسائل المثلى لتحقيق غايات ربما تكون قد تحددت عن غير طريق العلم . .

وقد أجاد بوتومور فى الفصل الثامن عشر فى مناقشة مشكلات السياسة الاجتماعية وعلم الاجتماع التطبيقى ، وإن كنا نأخذ عليه أنه لم يتناول بالقدر الواجب من العناية والتفصيل موضوعات الدراسة ونتائج البحث فى علم الاجتماع المعرفى ، الذى يعد فى نظرنا محوراً هاماً من محاور فهم حياتنا الاجتماعية . ومما يزيد من حجم هذا التقصير ضخامة التراث السوسيولوجى عن مختلف مباحث علم الاجتماع المعرفى[٥].

---

(٥) انظر عن علم الاجتماع المعرفى : محمد الجوهرى وآخرون : ميادين علم الاجتماع ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، الفصل الثانى عشر : « علم الاجتماع المعرفى » ، ص ص ٤٠٧ — ٤٤٨ تأليف جورج جورفتش ترجمة الدكتور محمد الجوهرى .

٤

إن علم الاجتماع كما عرفناه هو علم دراسة الحاضر ، نشأ نتيجة الحاجة إلى فهم الحياة المعاصرة وتوجيه ما تضطرم به من نظم متغيرة . فهو بذلك قديم قدم بدايات التفكير العقلى الرشيد ، وظهور العلوم الطبيعية الحديثة ، ونمو التكنولوجيا ، وقيام الثورة الصناعية ، وازدياد التقدم المادى ، والتغير الاجتماعى . وقد صدر علم الاجتماع عن رغبة أبناء ذلك العصر فى فهم كل هذه الأحداث والتأثير فى مسارها ، والتقليل من أخطارها، وتحقيق أكبر قدر من الاستفادة بمكتسباتها . فعلم الاجتماع بهذا يضع نفسه وسط تيار الأحداث معرضاً نفسه لمخاطر التاثير بالحالات الانفعالية العامة التى قد تسود المجتمع فى وقت ما ، والموضوعات الفكرية ، والمصالح الاقتصادية لهذه الفئة أو تلك من فئات المجتمع ، والمطالب الاجتماعية لقطاع أو آخر من قطاعاته . ومن المؤكد أنه يخضع لهذه المخاطر أكثر من أى علم آخر من العلوم الإنسانية . ويوجب عليه هذا الوضع وعلى المشتغلين به أن يدركوا دائماً نسبية آرائهم وقصور نظرتهم ، بل ونسبية التساؤلات التى يطرحونها بل وكذلك قصور الاجابات التى يعتقدون أنهم قد انتهوا اليها . ولعل مزيداً من اهتمام علماء الاجتماع بموضوعات علم الاجتماع المعرفى يزيدنا ادراكاً بهذه الحقيقة العامة ويزيدنا وعياً بارتباط الفكر ، كل فكر ، بالواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه .

ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن علمنا يقصر اهتمامه على إنسان الحاضر ، ويسقط البعد التاريخى من اعتباره فيما يجريه من دراسات . ولعل الأمر على العكس من هذا تماماً إذ يحرص علم الاجتماع أشد الحرص على الانتفاع قدر الإمكان من أكبر حشد من المادة التاريخية والأنثروبولوجية كى يعتمد عليها فى تحديد الانتظامات (وليس القوانين) العامة الطرازية التى تحكم العلاقات بين الناس والحياة فى مجتمع . وهو فى هذا يختلف عن التاريخ فى تناوله لأحداث الماضى وفى تحليله لتلك الأحداث[٦] .

---

(٦) حيث يقال أن التاريخ يقتصر على التفسير العلمى للأحداث التاريخية الفريدة والوقائع المتميزة ذات الأهمية الحاسمة فى توجيه مسيرة المجتمع الإنسانى . وقد تعرض بوتومور لهذه القضية وناقشها بما تستحق من تفصيل فى ثنايا الفصل الرابع الذى خصصه للكلام عن علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية . وانظر كذلك حول هذا=

ولا يعانى المشتغلون بعلم الاجتماع من نفس الشكوك التى تساور الكثيرين من أصحاب النزعة التاريخية الذين يعتقدون أننا لا نستطيع أن ندلى بأى شىء عام عن « الإنسان » ، لأنه ليس هناك إنسان عام أو إنسان واحد ، وإنما هناك ثقافات متباينة عن بعضها تبايناً شديداً فى بعض الأحيان . وقد يصل الاختلاف بيننا وبينها أحياناً إلى حد نعجز معه عن فهم حقيقتها وجوهر مضمونها وخصوصيتها المميزة لها(٧). ولو صح هذا الزعم لتحول التاريخ إلى مجرد تدوين حوليات على نحو ما كان يفعل مؤرخونا فى العصور الوسطى ، ولاستحال علينا أن نفهم الماضى وبالتالى نستفيد منه ، حتى ولو كان هذا الماضى تراث مجتمعنا وثقافتنا .

ورغم ما يوجد بين علماء الاجتماع من اختلاف فى وجهات النظر وتباين فى استعمال المفاهيم ، وتحيز لنزعات منهجية دون أخرى ، واختلاف فى تصور رسالة العلم ، رغم كل هذا فهناك إجماع على أن علم الاجتماع قادر على تحقيق الرسالة التالية :

١ – يستطيع علم الاجتماع أن يساعدنا على أن نفهم التجارب والخبرات والوقائع المختلفة فهما عميقاً شاملا من خلال وضعها فى إطار البناء الاجتماعى الشامل للمجتمع ، الأمر الذى يقودنا على الطريق السليم نحو فهم حقيقة أسبابها وطبيعة دوافعها .

٢ – لا شك أن علم الاجتماع هو العلم الإنسانى القادر على توعيتنا بنسبية القيم وأساليب السلوك الشائعة فى مجتمعنا وعالمنا الخاص . وإدراك هذه الحقيقة هو بداية الطريق نحو إكسابنا القدرة على فهم القيم وأساليب السلوك الشائعة عند أبناء مجتمعات وثقافات غريبة عن مجتمعاتنا وثقافتنا ، وتمكيننا من الإحساس بحقيقة مشاعر غيرنا من أبناء البشر . وليس هذا بالأمر الهين فهو بداية للتخلى عن مشاعر التمركز حول السلالة وهو شرط أساسى لقيام أى تعاون اجتماعى على كافة مستويات التعاون الممكنة . والأساس

= الموضوع وجهة نظر ماكس فيبر فى كتابه الجامع « الاقتصاد والمجتمع » .

Max Weber, Wirtschaft und Gesellshaft, Tübingen, 1921, p. 140.

وريتشارد بيرندت فى المرجع السابق الإشارة إليه ، ص ١٦ .

(٧) انظر على سبيل المثال :

Ernst, Troeltsch, Der Historismus und Seine Probleme, Tübingen, 1922.

ارنست ترولتش : « النزعة التاريخية ومشكلاتها » .

فى كل هذه بطبيعة الحال ليس مجرد المعرفة بواقع الآخرين وانما الأساس أن تتحول هذه المعرفة إلى نوع من التفهم والاستعداد للمشاركة والتعاون .

٣ — كما يساعدنا علم الاجتماع على تفهم الطبيعة الدينامية لسلوكنا الاجتماعى وبناء مجتمعنا الحديث . فيساهم بذلك مساهمة فعالة وأكيدة فى معالجة الذعر والتخوف الذى يحسه البعض من بعض التحولات الأساسية فى حياتنا الاجتماعية والثقافية كظاهرة النمو الحضرى ، التى وصلت فى بعض الأحيان إلى حد سرطانى مخيف ، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بعجز الدول — خاصة فى البلاد النامية — عن مقاومة ما ينجم عن ذلك من عواقب(٨) . ومنها أيضاً السطوة الهائلة التى أصبحت تحظى بها وسائل الإعلام المختلفة مما جعل البعض يجأرون بالشكوى من تحول المواطنين إلى « حشد» لايملك من أمر توجيه نفسه ولا من أمر التحكم فى فكره شيئاً .

أن علم الاجتماع قادر على أن يلقى الضوء على جذور حياتنا ومنشأ الأحداث اليومية التى نعيشها والخبرات التى نحياها ، والتى تعتبر الدراية الكاملة بها والفهم المتعمق لها المنطلق السليم لكل حركة نريد أن نتحكم فى مسارها

بهذا الفهم لعلم الاجتماع كعلم إنسانى فى نشأته وفى تطوره نطالع معاً صفحات هذا الكتاب .

محمد الجوهرى

٢٠ يوليو ١٩٧٣

---

(٨) وليس الموقف قاصراً بطبيعة الحال على التخوف من التحضر فى البلاد النامية ، فقد عرفت أوربا فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين صيحات معارضة كثيرة للتحضر ولأساوب الحياة فى المدن . « وظلت كثير من الآراء والعبارات الرنانة ضد المدينة تتكرر ، وأبرزها وأشهرها تلك التى أطلقها شبنجلر ضد المدينة ، أو قل متنبأ فيها بانهيار المدينة باعتبارها قمة التطور المدنى ، ولا يزال يحلو للبعض حتى الآن تكرارها حتى برغم تغير وضع المشكلة . إذ مع بدء اطلاقها وترددها بدأ سكان المدن — فى البلاد الأوروبية — يخرجون منها ، يعيشون على أطرافها ، وبدأت السيارة غزوتها للحياة الحديثة ، فأصبحنا إزاء مشكلة جديدة ، ليست هى المدينة الكبيرة فقط وإنما المدينة الميتروبوليتانية والمنطقة الميتروبوليتانية . . . إلخ » . قارن حول هذا الموضوع ، وكذلك عن مشكلات التحضر فى البلاد النامية : جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية. دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ، ترجمة وتقديم دكتور محمد الجوهرى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، خاصة ص ص ١٠ — ١١ .

مقدمة الطبعة الأولى

لا تجد وصفاً لهذا الكتاب أفضل مما وصفه به البروفسور أرنست جلنر E. Gellner بأنه « أفضل مدخل فى علم الاجتماع صدر فى بريطانيا » . والواقع أن جلنر ليس وحده الذى ينزل هذا الكتاب تلك المنزلة الرفيعة التى هو جدير بها دون منازع . فقد تصدر هذا الكتاب سائر كتب المدخل فى علم الاجتماع فى بريطانيا وجميع دول الكومنولث .

وقد أحسن المؤلف الموازنة فى معالجته بين سائر أقسام علم الاجتماع والنظم الاجتماعية ، فنجده ينتقل فى تسلسل منطقى من المسائل والمشكلات العامة للعلم فى الجزء الأول ، إلى النظم الاجتماعية فى الجزئين الثانى والثالث ، وأخيراً إلى مشكلات التغير والتطور والتقدم ، التى تمثل فى الحقيقة الوجه الآخر المكمل للنظرة البنائية الواضحة فى فصول النظم الاجتماعية . وينتهى نهاية منطقية أيضاً بالجانب التطبيقى للعلم ، وما يرتبط به من رسم السياسة الاجتماعية والمشكلات الاجتماعية .

وقد حرصت سلسلة علم الاجتماع المعاصر منذ بداية ظهورها على أن تضع القارىء العربى فى قلب صورة الوضع الراهن لعلم الاجتماع على مستوى العالم ، فبدأت فى كتابها الأول بتقديم استعراض شامل للموقف الراهن لمختلف ميادين الدراسة فى علم الاجتماع ، أتبعته بترجمة عربية وافية لكتاب نيقولا تيماشيف « نظرية علم الاجتماع » الذى يعتبر أحد ثلاثة أو أربعة كتب بارزة فى ميدان دراسة النظرية السوسيولوجية فى هذا العقد من القرن العشرين . وهى تسعد اليوم أن تواصل رسالتها بتقديم هذا الكتاب الهام فى المدخل ، والذى نرجو أن يجد فيه عوناً مفيداً كل من يريد الوقوف على الخطوط الرئيسية لهذا العلم .

وقد صدرت الطبعة الأولى الأصلية لهذا الكتاب فى عام ١٩٦٢ ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات بسبب شدة الإقبال عليه . فصدرت له إعادة طبع فى أعوام ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ على التوالى . وقد اعتمدت هذه الترجمة العربية على إعادة الطبعة الرابعة الصادرة عام ١٩٦٩ .

وقد التزمت السلسلة فى نقل هذه الكتب – سواء ما ظهر منها فعلا للناس ، أو ما زال فى طور الأعداد – تقليداً جديداً فى ميدان العمل السوسيولوجى العلمى فى مصر ، هو العمل الجماعى . ونرجو أن يعمق هذا الأسلوب بين زملائنا روح الفريق الواحد المتعاون الذى لا يمكن أن تقوم بدونه بحوث اجتماعية جادة . وهو الأسلوب الذى حقق لهذا العلم النجاح الباهر الذى صادفه فى العالم الغربى والشرقى على السواء .

* * *

أما مؤلف هذا الكتاب فهو توماس بيرتون بوتومور Thomas Burton Bottomore من علماء الاجتماع الأنجليز المعاصرين البارزين . ولد عام ١٩٢٠ وحصل على درجة الليسانس والماجستير فى الاقتصاد . وقد قام بوتومور بعد أن أنهى دراسته بجامعة لندن بإجراء دراسات عن هوبهوس . كما أجرى بعد ذلك بوصفه زميلا بمؤسسة روكفلر بعض البحوث عن موظفى الإدارة العليا فى فرنسا . ثم عين فى عام ١٩٥٢ بوظيفة مدرس ، ثم رقى إلى منصب أستاذ فى علم الاجتماع عام ١٩٥٧ بمدرسة الاقتصاد التابعة لجامعة لندن . وعلاوة على البحوث والدراسات المذكورة اهتم بوتومور بدراسة كارل ماركس وموضوعات الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع المعرفى . وقد شغل بوتومور لفترة طويلة منصب سكرتير « الاتحاد الدولى لعلم الاجتماع » . ومن أهم مؤلفاته :

١ – « الطبقات فى المجتمع الحديث » لندن ١٩٥٥

Classes in Modern Society.

(وقد صدرت له ترجمة بعنوان : « الطبقات فى المجتمع الحديث » ، الكتاب السابع فى هذه السلسلة ، القاهرة ، ١٩٧٢) .

٢ – « كارل ماركس : كتابات مختارة فى علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية » (باشتراك مع ماكس روبل) ، الطبعة الأولى ، لندن ١٩٥٦ .

Karl Marx : Selected Writings in Sociology and Social Philosophy.

٣ – « علم الاجتماع ، مدخل للمشكلات والمؤلفات » ، الطبعة الأولى لندن ١٩٦٢ .

Sociology : A Guide to Problems and Literature.

(وهو الكتاب الذى يخرج اليوم فى ترجمته العربية) .

٤ — «كارل ماركس : الكتابات الأولى» ، لندن ١٩٦٣ (مشرف على التحرير).
Karl Marx. Early Writings (editor).

٥ — «الصفوة والمجتمع» ، لندن ١٩٦٤ .
Elites and Society

(وقد صدرت له ترجمة بعنوان : «الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى» ، الكتاب السادس فى هذه السلسلة ، القاهرة ، ١٩٧٢) .

ورغم الأسلوب الجماعى الذى تم نقل الكتاب على أساسه إلى اللغة العربية ، إلا أن الانجاز النهائى للترجمة قد تم بتقسيم تولى فيه الدكتور محمد الجوهرى ترجمة الفصول : الأول ، والثالث ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، والدكتور محمد على محمد الفصول : الثانى ، والرابع ، والخامس ، والسادس ، والتاسع عشر ، والدكتور السيد محمد الحسينى الفصول من : السابع حتى الثالث عشر ، والدكتورة علياء شكرى الفصول من : السادس عشر حتى الثامن عشر .

المترجمون

مقدمة المؤلف

ترجع مناسبة تأليف هذا الكتاب إلى طلب تقدمت به إلى هيئة اليونسكو : الشعبة القومية الهندية لليونسكو لاعداد كتاب مدخل فى علم الاجتماع يمكن أن يقدم مفاهيم ونظريات ومناهج علم الاجتماع بالتطبيق على ثقافة المجتمع الهندى ونظمه الاجتماعية . وكان الرأى أن مثل هذا الكتاب يمكن أن يكون مدخلا للموضوع للطلبة الجامعيين الهنود أفيد من كتب المدخل الموجودة ، التى تدور أساساً حول المجتمعات الغربية .

وعندما دعانى قسم العلوم الاجتماعية باليونسكو لكتابة هذا الكتاب قبلت مرحباً . فأنا أولا أهتم بالفعل بالبلاد النامية بصفة عامة ، وبالتغيرات الاجتماعية المصاحبة لتصنيع تلك البلاد ، ثم إننى أهتم اهتماماً خاصاً بالنمو الاقتصادى والاجتماعى للهند . ولقد رأيت — فضلا عن هذا — أن محاولة عرض أسس ومناهج علم الاجتماع بالتطبيق على دراسة المجتمع الهندى يمكن أن تكون مفيدة ليس للطلاب الهنود فحسب ، وإنما لغيرهم أيضاً . إذ يمكن أن يوضح مدى كفاءة المفاهيم والمقولات السوسيولوجية المسلم بها ومدى صدقها صدقاً عاماً شاملا ، كما يمكن أن يكشف عن بعض المشكلات الرئيسية التى تواجه عمليات التصنيف ، والمقارنة ، والتعميم . وأخيراً فقد انتهزت هذه الفرصة لكى « أقدم » علم الاجتماع على نحو أعتقد أنه أكثر إفادة وإثارة لطالب الجامعة . وقد حرصت على طول الكتاب أن أحدد المشكلات النظرية الصعبة التى يهتم بها علم الاجتماع ، وأبين كيف حاول علماء الاجتماع التقليل من تعقد المشكلات ، وتطويعها للبحث العلمى . وكمقدمة لهذا استعرضت فى الجزء الأول من الكتاب بعض المشكلات العامة فى ميدان نظرية علم الاجتماع ومناهجه .

وقد أتيحت لى الفرصة بعد كتابة هذا الكتاب فى صورته الأولى أن أمضى بضعة أشهر فى الهند وأجرى حواراً مع بعض الدارسين الهنود . وقد أفدت إفادة كبرى من انتقاداتهم ومقترحاتهم عند إعادة كتابة الكتاب بصورته النهائية . وإذا لم أذكرهم هنا بالاسم ، فذلك لأن عدد الذين ساعدونى كبير جداً .

توماس بيرتون بوتومور

الباب الأول

مجال علم الاجتماع ومناهجه

الفصل الأول

دراسة المجتمع

منذ آلاف السنين والبشر يلاحظون ويتأملون المجتمعات والجماعات التى يعيشون فيها. ومع ذلك فعلم الاجتماع علم جديث، لا يزيد عمره على قرن واحد كثيراً، وقد وضع أوجيست كونت A. Conte —، فى تصنيفه للعلوم — علم الاجتماع من الناحيتين المنطقية والزمنية فى مرتبة تالية على العلوم الأخرى، باعتباره أقلها جميعاً عمومية، وأكثرها تعقيداً على الإطلاق. كما لاحظ واحد من أكبر علماء الانثروبولوجيا المحدثون بأن «علم دراسة المجتمع البشرى لا يزال بعد فى مرحلة طفولته الأولى»(١).

حقيقة أننا يمكن أن نجد فى كتابات الفلاسفة، والمفكرين الدينيين، والمشرعين فى جميع الحضارات وعلى مدى جميع العصور بعض الملاحظات والأفكار التى تتصل بعلم الاجتماع الحديث. فبعض الكتب الهندية القديمة* أو الكتابات الفلسفية الإغريقية (مثل كتاب السياسة لأرسطو) تحلل الأنساق السياسة على نحو لا زالت له أهميته بالنسبة لعالم الاجتماع. ورغم ذلك نؤكد أن هناك علماً جديداً لدراسة المجتمع، وليس مجرد اسم جديد فحسب(٢)، قد تأسس فى القرن التاسع عشر. ومن المفيد أن نعرض هنا للظروف التى تم فيها تأسيس هذا العلم، وندرس الخصائص التى تميز علم الاجتماع عن الفكر الاجتماعى السابق عليه(٣).

---

(١) A. R. Radcliffe - Brown, Structure and Function in Primitive Society (1952).

* يشير المؤلف إلى كتاب الارثاشسترا Arthashâstra من تأليف المفكر الهندى كاوتيليا Kautilya

(٢) كان أوجيست كونت هو الذى أطلق على هذا العلم الجديد إسم «علم الاجتماع» Sociology ولكننا نجده مرة يأسف لهذه الطبيعية المختلطة الكلمة، إذ تشتق من الكلمة اللاتينية Socius والكلمة الاغريقية Logos غير أنه يعود فيرى أن هناك نوعاً من التعويض عن هذا القصور الاشتقاقى، من حيث أنه يذكرنا دائماً بالمصدرين التاريخيين: المصدر الفكرى، والمصدر الاجتماعى، اللذين صدرت عنهما الحضارة الحديثة. إنظر كتابه: «نسق السياسة الوضعية». System of Positive Polity (trans, S. H. Bridges), Vol. I, p. 326.

(٣) تؤكد كتب التاريخ للفكر الاجتماعى دون حق — على وجود نوع من الاستمرار فيه. ولعله من =

لعله يمكن تصنيف الظروف التى ظهر فى ظلها علم الاجتماع إلى ظروف فكرية وأخرى مادية ، وسوف أتناولها بالمناقشة وفقاً لهذا الترتيب . وقد كانت جميع تلك الظروف متداخلة بطبيعة الحال مع بعضها . ولا شك أن تأريخاً سوسيولوجيا كفوءاً لعلم الاجتماع — وهو ما لم يتوفر لدينا بعد — سوف يأخذ هذا التداخل فى اعتباره . ولا أستطيع فى مثل هذه المقدمة الموجزة الا أن أقتصر على ذكر بعض العوامل العامة فحسب .

ليس من العسير علينا تحديد الأصول الفكرية الرئيسية لعلم الاجتماع . « ويمكن القول بصفة عامة بأن علم الاجتماع له أصل رباعى يتمثل فى الفلسفة السياسة ، وفلسفة التاريخ ، والنظريات البيولوجية فى التطور ، والحركات التى قامت تنادى بالاصلاح الاجتماعى والسياسى ووجدت أنه من الضرورى أن تجرى لهذا الغرض دراسات مسحية Surveys للظروف الاجتماعية »[٤] . وقد لعب اثنان من هذه المصادر ، وهما فلسفة التاريخ والمسح الاجتماعى ، دوراً عظيم الأهمية فى المراحل الأولى بالذات . وقد كانا نفسيهما من أحدث منجزات التاريخ الفكرى للانسان .

وتعتبر فلسفة التاريخ كفرع متميز من الفكر الإنسانى من ابتكارات القرن الثامن عشر[٥] . ونذكر من بين مؤسسيها الأب - سان بيير Saint-Pierre والإيطالى جيام باتيستا فيكو G. Vico . وقد عملت الفكرة العامة للتقدم التى ساهما فى صياغتها على التأثير تأثيراً عميقاً على تصور الناس للتاريخ ، وانعكست فى كتابات مونتسكيو وفولتير فى فرنسا ، وهيردر Herder فى ألمانيا ، وكتابات مجموعة من الفلاسفة والمؤرخين

= المفيد والكاشف لكثير من غوامض الأمور أن يوضع لعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الحديثة تأريخ مماثل لذلك الذى وضعه بترفيلد Butterfield للعلوم الطبيعية فى كتابه « أصول العلم الحديث The Origins of Modern Science » (الصادر فى لندن عام ١٩٥٠) ، حيث يبرز التغيرات الجذرية التى حدثت تجاه العالم المادى الطبيعى .

(٤) M. Ginsberg, Reason and Unreason in Society (1947). p. 2.

(٥) يجب أن نستثنى من هذا مؤلفات الفيلسوف المؤرخ العربى ابن خلدون الذى عاش فى القرن الرابع عشر . فقدمته التاريخ العام تعرض على نحو فذ نظرية فى التاريخ تسبق نظائرها عند الكتاب الأوروبيين فى القرن الثامن عشر ، بل وتسبق كارل ماركس أيضاً . ولكنها تمثل فى نفس الوقت إنتاجاً لرجل فذ لم يكن له سلف ولم يترك بعده خلف يواصل استكمال عمله . قارن شارل عيسوى : « فلسفة عربية التاريخ » .
An Arab Philosophy of History (2nd ed. 1955).

الاسكتلنديين فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، مثل فيرجسون Ferguson وميلار Millar ، وروبرتسون Robertson وغيرهم . ويبدو هذا الاتجاه التاريخى الجديد واضحاً كل الوضوح فى فقرة من مقال دوجالد ستيوارت المعنون « **سيرة آدم سميث** »[٦] Memoir of Adam Smith ، حيث يقول « لابد لنا عندما نقارن مكتسباتنا الفكرية وآراءنا وأساليبنا فى السلوك ونظمنا ، ونحن فى هذه المرحلة الاجتماعية التى نعيش فيها ، بتلك السائدة عند القبائل البدائية ، لا بد من أن يثور لدينا التساؤل عن الخطوات التدريجية التى قطعها التحول الاجتماعى ابتداء من الجهود البسيطة الأولى للطبيعة الخام وصولا إلى تلك المرحلة التى بلغت حداً فائقاً من الإصطناع والتعقد . ويستطرد ستيوارت قائلا أن « هناك نقصاً فى المعلومات الخاصة بكثير من مراحل هذا التقدم ، وأنه لا بد من الاستعاضة عن تلك المعلومات بالتخمين المعتمد على « المبادئ المعروفة للطبيعة البشرية » . ثم يقول ستيوارت :

« وسأعطى نفسى حرية إطلاق اسم **التاريخ النظرى أو التاريخ الظنى** Conjectural على هذه الدراسات الفلسفية التى ليس لها بعد إسم مناسب فى لغتنا . ويقابل هذا الاسم فى معناه تقريباً اسم **التاريخ الطبيعى** Natural History كما استخدمه المستر هيوم Hume وما أطلق عليه بعض الكتاب الفرنسيين اسم **التاريخ التأملى** Histoire Raisonnée .

وقد أصبحت فلسفة التاريخ عاملا فكرياً هاماً فى أوائل القرن التاسع عشر ، وذلك من خلال كتابات هيجل وسان سيمون[٧] . وقد نبعت من هذين المفكرين أعمال كل من ماركس وكونت ، وبالتالى جانباً من أهم الخيوط فى علم الاجتماع الحديث . ويمكن أن نقدر بإيجاز الإسهامات التى قدمتها فلسفة التاريخ لعلم الاجتماع بأنها أفكار النمو والتقدم ، على الجانب الفلسفى ؛ ومفاهيم المراحل التاريخية والأنماط الاجتماعية ، على الجانب العلمى . ويرجع الفضل إلى فلاسفة التاريخ أساساً فى ظهور التصور

---

(٦) Dugald Stewart, Works, Vol. 10, pp. 33 - 4.

(٧) للحصول على معلومات عن تطور فلسفة التاريخ وعن دراسات بعض الكتاب الذين ورد ذكرهم ، أنظر :

R. Flint, History of the Philosophy of History (1893) and J. B. Bury. The Idea of Progress (1920).

الجديد للمجتمع باعتباره أكثر من مجرد « المجتمع السياسى» أو الدولة . وقد امتد ، اهتمامهم بحيث شمل كافة النظم الاجتماعية ، وفرقوا تفريقاً دقيقاً بين الدولة وما أطلقوا عليه اسم « المجتمع المدنى » Civil Society . وربما كانت دراسة آدم فيرجسون A. Ferguson المعنونة « **مقال فى تاريخ المجتمع المدنى** »* . (الصادر عام ١٧٦٧) أفضل نموذج لهذا الاتجاه . ويبدو أن ترجمتها الألمانية قد أمدت هيجل ببعض المصطلاحات التى استخدمها وأثرت على الاتجاه الذى اتبعه فى كتاباته الأولى عن المجتمع . ويناقش فيرجسون فى هذا « المقال » ، وفى الكتابات التى نشرها بعد ذلك موضوعات : طبيعة المجتمع والسكان ، والأسرة والقرابة ، وتباين المراتب ، والملكية ، والحكومة ، والعادات الاجتماعية ، والأخلاق ، والقانون . أى أنه كان يتناول المجتمع كنسق من النظم المترابطة المتداخلة . وقد اهتم علاوة على هذا بتصنيف المجتمعات إلى أنماط ، وبتحديد مراحل النمو الاجتماعى . ويمكن أن نجد ملامح مماثلة لهذه فى كثير من كتابات من أطلقنا عليهم اسم فلاسفة التاريخ . فهى تمثل جميعاً إجماعاً مذهلا وتغيراً مفاجئاً فى اتجاه اهتمام الناس بدراسة المجتمع الإنسانى . وقد عادت هذه الملامح إلى الظهور فى القرن التاسع عشر فى مؤلفات علماء الاجتماع الأوائل مثل كونت ، وماركس ، وسبنسر .

ويتمثل العنصر الهام الثانى فى علم الاجتماع الحديث فى المسح الاجتماعى ، الذى يرتكز بدوره على مصدرين اثنين . أول هذين المصدرين الاقتناع المتزايد بأن مناهج العلوم الطبيعية ينبغى — وهى أيضاً قادرة — أن تتسع لتغطى مجال دراسة الشئون الإنسانية ، وأن الظواهر الإنسانية يمكن تصنيفها وقياسها . أما المصدر الثانى للمسح الاجتماعى فهو الاهتمام بمشكلة الفقر (أو ما يعرف فى الكتابات الأوروبية المثقفة باسم « المسألة الاجتماعية » انطلاقاً من إدراك الحقيقة التى مؤداها ؛ أن الفقر فى المجتمعات الصناعية لم يعد بعد ظاهرة طبيعية — كنقمة من الطبيعة أو من الله — وإنما هو نتيجة الجهل الأنسانى أو الاستغلال . وفى ظل هذين العاملين المؤثرين — وهما مكانة العلوم الطبيعية والحركات الرامية إلى الإصلاح الاجتماعى — أخذ المسح الاجتماعى يحتل مكانة هامة فى هذا العلم الجديد لدراسة المجتمع . وأفضل سبيل لتتبع التقدم الذى أحرزه هذا العلم

* Essay on the History of Civil Society.

أن ننظر فى تطوره فى المجتمعات الصناعية فى أوروبا الغربية كما يبدو فى بعض المؤلفات الرائدة مثل مؤلف السيرجون سنكلير Sinclair المعنون « **وصف احصائى لاسكتلنده** » * (٢١ مجلداً صدرت فى الفترة من ١٧٩١ حتى ١٧٩٩) ، وكتاب السير ف . م . ايدن Eden بعنوان : « **دولة الفقراء** » ** (ويقـــع فى ثلاثة مجلدات ، صدر عـــام ١٧٩٧) ، ومحاولات كوندرسيه Condercet وضع « **رياضيات احصائية** »(٨) ، وفى كتاب « **الفيزياء الاجتماعية** » الذى وضعه كيتلية(٩) Quètelet وفى الدراسات التى صدرت بعد ذلك مثل مؤلفات لوبلاى Le Play « **العمال الأوربيون** » (صدر فى طبعته الأولى عام ١٨٥٥ ، ثم صدرت له طبعة ثانية موسعة فى الفترة من ١٨٧٧ — ١٨٧٩) *** ، وبوث Booth « **حياة وعمل سكان لندن** » **** (١٨٩١ — ١٩٠٣) . وقد ظل المسح الاجتماعى من أهم طرق البحث فى الدراسات السوسيولوجية .

ونلاحظ أن هاتين الحركتين الفكريتين ، وهما فلسفة التاريخ والمسح الاجتماعى لم تكونا فى عزلة عن الظروف الاجتماعية فى أوروبا الغربية إبان القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر . وقد أثار هذا الاهتمام الجديد بالتاريخ والتنمية الاجتماعية تلك السرعة وذلك العمق اللذين جرى بهما التغير الاجتماعى ، كما أثارته المقابلة بين الثقافات المختلفة التى كان الناس يعقدونها بفضل رحلات الاستكشاف . كما أن فلسفة التاريخ لم تكن

* Sir John Sinclair. Statistical Account of Scotland.

** Sir F. M. Eden, The State of the Poor.

(٨) See G.G. Granger, La mathèmatique Social du Marquis de Condorcet, (Paris 1956).

عن كوندرسيه انظر بالعربية : د. عاطف أمين وصفى ، كوندرسيه ، سلسلة نوابغ الفكر الغربى : القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ .

(٩) A. Quètelet, Sur l'homme et le dévelopment de ses facultés, ou essai de physique sociale (1835).

عن كيتليه أنظر بالعربية : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع . طبيعتها وتطورها ، ترجمة د . محمود عوده وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ ، ص ٦٩ وما بعدها .

*** Le Play, Les ouvriers Européens.

عن فريدريك لوبلاى انظر بالعربية ، نيقولا تيماشيف ، المرجع السابق ص ٧١ وما بعدها .

**** Booth, Life and Labour of the People in London.

مجرد وليد فى أحضان الفكر وحسب ، وانما هى بنفس القدر بنت ثورتين هما : الثورة الصناعية فى انجلترا ، والثورة الفرنسية . وبالمثل لم يقم المسح الاجتماعى نتيجة مجرد الطموح فى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العالم الإنسانى ، وإنما نتيجة وجود تصور جديد للشرور والمشكلات الاجتماعية ، تأثر هو نفسه بالإمكانيات المادية للمجتمع الصناعى . فالمسح الاجتماعى لمشكلة الفقر أو أى مشكلة اجتماعية أخرى ، لا يمكن أن يكون له معنى إلاّ إذا كان هناك اعتقاد بأنه من الممكن عمل أى شيء للقضاء على هذه الشرور أو التخفيف من وطأتها . وأعتقد أن انتشار الفقربين القوى المنتجة الضخمة المتزايدة هو العامل المسئول عن تغير النظرة إلى الفقر ، فلم يعد الفقر مشكلة طبيعية (أو حالة طبيعية) ، وإنما أصبح مشكلة اجتماعية قابلة لدراسة والإصلاح . ولعل هذا يمثل على الأقل عنصراً هاماً فى الإقتناع الذى ساد آنذاك بأنه يمكن استخدام المعلومات الدقيقة فى الإصلاح الاجتماعى ، وبأنه إذا كان الإنسان قد استطاع أن يتحكم تحكماً متزايداً فى البيئة المادية ، فإنه يستطيع بالمثل أن يتحكم فى بيئته الاجتماعية .

وهكذا يمكننا أن نرجع المرحلة التمهيدية لعلم الاجتماع إلى فترة طولها نحو مائة عام تمتد تقريباً من ١٧٥٠ حتى ١٨٥٠ ، أو لعلنا نقول إنها تمتد منذ نشر مونتسكيو كتابة « روح القوانين » * حتى ظهور أعمال كونت وصدور الكتابات الأولى لسبنسر . أما الفترة التى تشكل فيها علم الاجتماع كعلم مستقل فتشغل النصف الثانى من القرن التاسع عشر[١٠]، ويمكننا أن نتبين من العرض الموجز لأصوله بعض السمات التى اتصف بها علم الاجتماع فى بداياته الأولى . فقد كان أولا ذا طابع **موسوعى** ، اذ كان يهتم بالحياة الاجتماعية للانسان فى مجموعها ، وبالتاريخ بأكمله . ثم كان ثانياً **تطورياً**، وذلك تحت تأثير فلسفة التاريخ ، مدعمة بواسطة نظرية التطور الحيوى : فكان يسعى إلى تحديد المراحل الرئيسية للتطور الاجتماعى . وكان الناس يعتبرونه — ثالثاً — علماً **وضعياً** له نفس طابع العلوم الطبيعية . فقد كانت العلوم الاجتماعية تفهم بصفة عامة إبان القرن

---

* Montesquicu, Esprit des lois.

(١٠) عن تاريخ علم الاجتماع انظر :

H. Stuart Hughes. Consciousness and Society (London 1959), and Heinz Maus, A Short History of Sociology (London 1962).

الثامن عشر على أنموذج الفيزياء ، أما علم الاجتماع فكان يفهم فى القرن التاسع عشر على أنموذج علم الحياة . ويبدو ذلك واضحاً فى الاهتمام الكبير بموضوع التطور الاجتماعى ، وفى التصور الذى كان سائداً عند الأغلبية والذى كان المجتمع بمقتضاه كائناً حياً . ويبدو الاهتمام العام بالطابع العلمى لعلم الاجتماع أوضح ما يكون فى محاولات صياغة قوانين عامة للتطور الاجتماعى ، فى كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

ومن الطبيعى أن تثير هذه الدعاوى العريضة المعارضة ، وخاصة من جانب أولئك الذين يعملون فى ميادين أضيق وأكثر تخصصاً وتحديداً ، ومن بينهم المؤرخين ورجال الاقتصاد ، وعلماء السياسة . ومن المشكوك — حتى فى يومنا هذا — ما إذا كان علم الاجتماع قد أفلح تماماً فى أن يسدل الستار على الأطماع العريضة التى كان يدعيها فى أوائل عهده . على أننا يجب أن نميز بين المزاعم المختلفة ، كما نميز بين الدعاوى الخاصة بمرور موضوع العلم ، والدعاوى الخاصة بمكتشفاته . ولم يعد يعتقد أى إنسان اليوم أن كونت أو سبنسر قد توصل إلى اكتشاف قوانين التطور الاجتماعى (على الرغم من أن كثيرين يعتقدون أن كارل ماركس قد توصل إلى ذلك) . ولكن لا يترتب على هذا أن كونت أو سبنسر (أو بالنسبة لغير المؤمنين بماركس أيضاً) قد أخطأوا كل الخطأ فيما ذهبوا اليه حول تحديد مجال علم الاجتماع ، أو أنهم لم يقدموا إسهامات هامة فى سبيل تقدمه . ويبدو من الواضح أن هناك حاجة إلى علم اجتماعى يختص بدراسة المجتمع ككل ، أو البناء الاجتماعى الكلى . على أن مثل هذا الادعاء يعنى إثارة مشكلة كيفية إمكان قيام وتقدم علم شامل كهذا ، وكيفية ارتباطه بالعلوم الاجتماعية الأخرى .

وقد نشأت المعارضة لعلم الاجتماع فى مراحله الأولى — إلى حد كبير — عن الإحساس بأنه يستهدف امتصاص العلوم الاجتماعية الأخرى جميعاً ، وليس مجرد التنسيق بينها . وقد تخلى بعض علماء الاجتماع فى مؤلفاتهم بعد تلك المرحلة صراحة عن مثل هذه المطامح فنجد مثلا هوبهوس يفهم علم الاجتماع على أنه « علم يتخذ ميداناً له الحياة الاجتماعية للانسان بأكملها » ؛ وليس كفرع تخصص جديد . ولكنه يرى أن العلاقة التى تربطه بالعلوم الاجتماعية الأخرى هى علاقة تبادل وتأثير مشترك فيقول : « . . ليس علم الاجتماع العام علماً مستقلا مكتفياً بذاته قبل أن يبدأ التخصص ، ولا هو مجرد تركيب من العلوم الاجتماعية يقوم على التجاوز الآلى

لنتائج هذه العلوم . وإنما هو فى حقيقة الأمر مبدأ يبعث الحياة يتخلل كل أنواع البحوث الاجتماعية ، يغذيها ويتغذى منها بدوره ، يحفز إلى الدراسة والبحث ، ويربط بين النتائج المتباينة ، يعرض حياة الكل فى الأجزاء المكونة له ، وينتقل من دراسة الأجزاء إلى إدراك الكل إدراكاً أكمل وأشمل »(١١)

كذلك فعل دوركيم ، فعلى الرغم من أنه كان مهتماً بصفة خاصة بالتأكيد على استقلال علم الاجتماع وبتعيين مجال الظواهر التى ينبغى أن يتناولها علم الاجتماع بالدراسة ، ورغم ذلك لم يزعم أن علم الاجتماع يمكن أن يكون علما موسوعياً ، أو أنه يمكن أن يؤدى واجبه بمعزل عن العلوم الاجتماعية الأخرى . لقد تصور دوركيم – على نحو قريب من هوبهوس إلى حد كبير – انتشار الاتجاه السوسيولوجى ، وبالتالى حدوث تحول فى العلوم الاجتماعية الخاصة من الداخل . ولم يفكر إلا فى مرحلة لاحقة فى امكان قيام علم الاجتماع عام ، يتضمن قوانين أكثر عمومية تستند إلى القوانين التى تم التوصل إليها فى المجالات الخاصة للعلوم الاجتماعية الفرعية(١٢) . وقد أوضح دوركيم فى كلمة المحرر التى كتبها للعدد الأول من « حولية علم الاجتماع » Année Sociologique أن «جهودنا سوف تتجه أساساً إلى العناية بالدراسات التى تتناول موضوعات محددة أشد التحديد ، تندرج تحت فروع خاصة لعلم الاجتماع إذ طالما أن علم الاجتماع لا يمكن أن يكون تركيباً من هذه العلوم الخاصة ، وطالما أنه لا يمكن أن يتضمن سوى مقارنة بين نتائجها ذات الطبيعة الشديدة العمومية ، فانه لا يمكن قيام علم اجتماع عام إلا بالقدر الذى تنمو به هذه الفروع المكونة له »(١٣) .

ويكاد يكون من العسير أن ندعى أن تلك الأهداف المتواضعة التى حددها كل من هوبهوس ودوركيم قد تحققت على نحو يمكن أن نتفق عليه جميعاً . وقد كان دوركيم أكثر توفيقاً من هوبهوس فى إدخال الاتجاه السوسيولوجى إلى علوم

(١١) L. T. Hobhouse, Editorial Introduction. The Sociological Review, (London) I (I), 1898.

(١٢) See especially Emile Durkheim, "Sociologie et Sciences, Sociales", Revue Philosophique LV, 1903, and "On the relation of sociology to the Social Sciences and to Philosophy", Sociological Papers (London), I. 1904.

(١٣) Année Sociologique, 1. 1898, p. IV.

اجتماعية أخرى . فقد تأثر عدد كبير من الدارسين الفرنسيين — الذين ينتمون إلى تخصصات متنوعة — بمؤلفات دوركيم ، وكانت حافزاً لهم لطرق موضوعات معينة . فنجد فى القانون كلا من دافى Davy ، وليفى برول Lèvy — Bruhl ، وفى الاقتصاد سيميان Simiand ، وفى الأنثروبولوجيا موس Mauss ، وفى التاريخ مارك بلوش Marc Bloch ، وجرانيه Granet ، وفى اللغويات كاهان Cahen ، وميية Meillet ، ونكتفى بهذه الأسماء باعتبارها أبرز أفراد هذه الطائفة من العلماء . على أن أفكار دوركيم لم تنتقل من خلال مؤلفاته فحسب ، وإنما انتقلت بدرجة أكثر فعالية من خلال « حولية علم الاجتماع » التى أسسها فى عام ١٨٩٨ . ويمكننا أن نقول أن مفهومه عن علم الاجتماع كان متجسداً فى طريقة تنظيم موضوعات « حولية علم الاجتماع » نفسها . فقد كان كل عدد من أعداد الحولية يضم دراسة واحدة أو دراستين مونوجرافيتين أصليتين ، وعدداً من الدراسات المسحية — مكتوبة من وجهة نظر علم الاجتماع — للكتابات التى صدرت خلال ذلك العام فى بعض مجالات البحث الاجتماعى المستقلة . وقد برر دوركيم ذلك التنظيم بقوله : « نعتقد أن علماء الاجتماع فى حاجة ملحة إلى الوقوف بشكل منتظم على البحوث التى تجرى فى العلوم الاجتماعية الخاصة مثل : تاريخ القانون ، والعادات الاجتماعية ، والدين ، والاحصاء الاجتماعى والعلوم الاقتصادية . . إلخ . ففى هذه البحوث توجد المواد التى ينبغى أن نعتمد عليها فى إقامة علم الاجتماع »(١٤) .

أما فى ألمانيا فقد حدث كما يقول « ريمون آرون »(١٥) أن صادف علم الاجتماع رفضاً فى بادئ الأمر بسبب طبيعته الموسوعية التى لازمته فى تلك المرحلة . وقد بذلت فى ألمانيا — أكثر من أى مكان آخر — محاولات لتعريف وتحديد ميدان دراسة علم الاجتماع ، ولكن عن طريق تأسيس علم تجريدى يدرس « صور » الحياة الاجتماعية . وقد لعب جورج زيمل Simmel الدور الأكبر فى هذا الصدد ، ولكننا نجد أنه قد ساوق هذه الجهود اهتمام مستمر بالتفسير التاريخى وبعلم اجتماع الثقافة

---

(١٤) نقلا عن « حولية علم الاجتماع » ؛ العدد الأول ، ١٨٩٨ . وقد عادت « حولية علم الاجتماع » إلى الظهور بعد توقفها (المرة الثانية) بعد عام ١٩٤٥ ولا زالت مجلة علمية قيمة تخدم مجموعة من العلوم الاجتماعية .

(١٥) Raymond Aron, German Sociology (English translation, London 1957), p. 1.

Sociology of Culture كان للماركسية فضل التشجيع عليه . وقد اجتمعت هذه الاهتمامات المختلفة فى كتابات ماكس فيبر M. Weber ، الذى نلحظ فى مؤلفاته –كما هو الحال فى مؤلفات دوركيم – نفس الحرص على تطوير اتجاه سوسيولوجى داخل العلوم القائمة : التاريخ ، والقانون ، والاقتصاد ، والسياسة ، والأديان المقارن .

وهكذا استهدف علماء الاجتماع الكلاسيكيون – وخاصة دوركيم – إرساء حدود العلم ومناهجه ، وإبراز أهميته من خلال دراسة الظواهر الاجتماعية الرئيسية ، وكذلك تأسيس رابطة وثيقة بينه وبين العلوم الاجتماعية القائمة . ثم حدث أن انحرف علم الاجتماع فيما بعد عن هذه الأهداف فى نقاط معينة . فنلاحظ فى المقام الاول عودة علماء الاجتماع – لفترة – إلى الاهتمام من جديد بوضع أنساق نظرية عامة . غير أنه يمكن توجيه النقد إلى هذا الاهتمام من عدة نواح . فيبدو أولا من غير الحكمة محاولة وضع مثل هذه النظريات فى مرحلة لم يتوفر فيها لدينا بعد سوى عدد قليل جداً من التعميمات الأكيدة على مستوى منخفض . كما تميل هذه الجهود النظرية مرة أخرى إلى عزل علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية الأخرى ، أو إلى اظهاره من جديد بمظهر العلم « الامبريالى » الذى يستهدف إخضاعها جميعاً له .

أما فى ميدان البحوث فنلاحظ ميلا إلى التركيز على موضوعات تمثل « فضلات » العلوم الأخرى ، لا يدعها لنفسه أى من العلوم الاجتماعية الأخرى ، وتتصف بطابع « المشكلة الاجتماعية » . فقد أظهرت إحدى الدراسات المسحية الحديثة لعلم الاجتماع الأمريكى أن أهم ميدانين من ميادين البحث فى علم الاجتماع – من واقع عدد مشروعات البحوث التى أجريت فيها – فى عامى ١٩٥٣ و١٩٥٤ هى : دراسات المجتمع الحضرى والمجتمع المحلى ، والزواج والأسرة . وقد كان الاتجاه فى بعض البلاد الأخرى قريباً من هذا .

على أن هذه ليست كل القصة . فلدينا فى الواقع عديد من الشواهد على أن الاتجاه السوسيولوجى قد انتشر على نطاق واسع فى العلوم الاجتماعية الأخرى . وأفضل مثل على هذا علم السياسة . إذ يرجع الفضل إلى علماء الاجتماع فى أجراء عديد من

(١٦) H. Zetterberg (ed.), Sociology in the United States of America (UNESCO, 1956) p. 18.

البحوث أو التنبيه إلى أهميتها فى هذا الميدان ، ومنها دراسات الأحزاب السياسية (التنظيم ، البيروقراطية ، القادة) ، والجماعات الضاغطة ، والانتخابات والسلوك الانتخابى ، والإدارة العامة (البيروقراطية ، وفئات الصفوة)[١٧]. وتمثل هذه البحوث جانباً كبيراً من الدراسات الجارية عن النظم السياسية . وأصبح من الأمور المتزايدة الصعوبة التمييز بين علم السياسة وعلم الاجتماع السياسى . أما بالنسبة لعلم الاقتصاد الذى يتمتع بنسق نظرى ذى مستوى رفيع ، فكان تأثير علم الاجتماع أقل كثيراً . ولو أن الدراسات السوسيولوجية عن تنظيم العمل فى المؤسسات الصناعية ، وعن العلاقات الصناعية ، وتلك التى أجريت مؤخراً عن عمليات التصنيع ، قد ساهمت جميعاً مساهمة أساسية فى إثراء المعرفة الاقتصادية . كما أدى نمو التخطيط الاقتصادى إلى إبراز أهمية الجوانب السوسيولوجية فى السلوك الاقتصادى[١٨] .

وبوسعنا الآن أن نحدد مكانة علم الاجتماع فى دراسة المجتمع بدقة أكبر ، مع أننا لا نستدف من ذلك عزله عن بقية العلوم الأخرى . لقد كان علم الاجتماع (وكذلك الأنثروبولوجيا الاجتماعية) أول علم يهتم بدراسة الحياة الاجتماعية ككل ، بالنسق المركب من النظم الاجتماعية والجماعات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع . والمفهوم الأساسى ، أو الفكرة الموجهة ، فى علم الاجتماع هى البناء الاجتماعى . فمن هذا المفهوم صدر اهتمام عالم الاجتماع بجوانب الحياة الاجتماعية المختلفة التى لم تكن تدرس من قبل إلا بطريقة غير منهجية ، وهى : الأسرة ، والدين والأخلاق والتدرج الاجتماعى ، والحياة الحضرية . وقد أشرنا من قبل إلى أن الاهتمام ببعض هذه الموضوعات « الفضلات » قد يزيد إلى حد المبالغة ، غير أن دراستها تمثل جزءاً هاماً من علم الاجتماع ؛ وإذا نظرنا إليها نظرة سليمة فلا يمكن فصلها عن دراسة النظم السياسية والاقتصادية . أما الإسهام الذى ينبغى أن يقدمه علم الاجتماع فى ميادين

---

(١٧) يمكن الوقوف على حجم الدراسات السوسيولوجية فى هذا الميدان من تقريرين عن اتجاهات البحوث نشرا فى مجلة Current Sociology ، السنة الثالثة (العدد الرابع) ١٩٥٤ — ١٩٥٥ بعنوان « السلوك الانتخابى » Electoral Behavior بقلم G. Dupeux والمقال الثانى: السنة السادسة (العدد الثانى) ١٩٥٧ «علم الاجتماع السياسى Political Sociology تأليف بندكس وليبست Bendix and Lipset .

(١٨) لم نشر إلى هذه الأمور إلا كأمثلة فقط . فالعلاقات المختلفة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى سوف تدرس بشكل أكمل فى الفصل الرابع .